ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X
مجلة أبعاد
مجلد 08، العدد 02، 2021

الدرس اللّغوي عند علماء اللسان العربي من منظور مناهج البحث اللغوي الحديث - دراسة مقارنة في المفاهيم والتطبيقات -

The linguistic lesson of Arabic linguists from the perspective of modern linguistic research methods

A comparative study of concepts and applications

مداني أحمد [1]*
a.madani@univ-chlef.dz
[1]جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف – الجزائر

****

تاريخ الإرسال: 2021/09/01	تاريخ القبول: 2021/12/25	تاريخ النشر: 2021/12/31

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى استكناه جهود العلماء في دراسة اللغة، ومعرفة مدى التزامهم بمنهج معيّن في التأسيس لعلوم اللّغة المختلفة، وتحليل المادة اللّغوية، كما يهدف إلى محاولة التأكّد من أنّ أعمالهم كانت ملتزمة بمنهج أم كانت تفتقر إلى خطة مُحكمة في هذا المجال، وذلك من خلال مقارنة أعمالهم، بما أفرزه علم اللغة الحديث من مناهج حديثة لدراسة اللّغة دراسة علميَّة، ودفعاً لما يتوهمه بعض الباحثين أنّ الدرس اللغويّ القديمعند العرب، على الرغم من كثافة المعلومة اللّغوية، والدقة العلمية في الطرح والاستنتاج، إلا أنّه انعدم فيه اتباع منهج معين، زعما أنّ الدرس اللغوي بصفة عامة، لم يعرف المناهج الحديثة إلا منذ زمن قريب كالمنهج التاريخي والمنهج الوصفي، والمنهج المقارن والمنهج التقابلي.

من أجل معرفة هذا الزَّعم أهو حقيقة أم مجرد شبهة، يجب استقراء آثار علماء اللّسان العربي واستنطاق محتويات مؤلفاتهم ، رغبة في الوقوف على حقائق تثبت تطبيق علماء العربية قديماً للمناهج أو تنفيه عنهم.

الكلمات المفتاحية:

منهج؛ المناهج الحديثة؛ المنهج التاريخي؛ المنهج الوصفي؛ المنهج المقارن؛ المنهج التقابلي.

*المؤلف المراسل: a.madani@univ-chlef.dz

Abstract :

This research seeks to be based on the efforts of scholars in the study of language, and to know the extent of their commitment to a specific approach in establishing the various linguistic sciences, and analyzing the linguistic material. It also aims to try to make sure that their works were committed to a curriculum or were lacking in a sound plan in this area, through A comparison of their works, with what modern linguistics has produced from modern methods of studying language scientifically, and pushing for what some researchers that the old linguistic lesson among the Arabs, despite the density of linguistic information and the scientific accuracy of subtraction and conclusion, but there is no following in it, allegedly. That the linguistic lesson in general, did not know modern curricula until recently, such as the historical curriculum, the descriptive curriculum, the comparative curriculum and the contrastive curriculum.

In order to know this claim, whether it is a fact or just a suspicion, it is necessary to extrapolate the effects of Arab linguists and interrogate the contents of their books, in order to find out facts that prove the ancient application of Arabic scholars of the curriculum or deny it from them.

key words: Method; Modern Method ; Historical Method; Descriptive Method; Comparative Method; Contrastive Method.

مقدمة:

اللّغة باعتبارها ظاهرة إنسانية، آية بين الخالق - سبحانه - وخلقه، اقترن بها خلق الإنسان وبها علّم، قال تعالى: {الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَالْقُرْآنَ (2) خَلَقَالْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُالْبَيَانَ}[1] وبها عرف مكانته بين المخلوقات، وبها وصف من سائر الموجودات، إما بالإبانة وإما بالعيّ، وباللغة تكوّنت المجتمعات، وبواسطتها حدث التواصل بينها، فهي بذلك شقيقة الوجود الإنساني، نشأت بنشأته الأولى على النطق، فكانت بذلك شفوية، ثم تلتها أطوار ظهرت فيها الرموز فاخترعت الكتابة، ومن ثم حفظت اللّغة من الزوال، وضمنت لها عملية التطور، لأن اللغة إذا لم تتطور كان مآلها الزوال، وبما أ، اللغة تمثل المجتمع بل ولدت فيه، فإن العُلماء بشتى تخصصاتهم اهتموا بها، فكانت محل اهتمام علماء الاجتماع وعلماء النفس، وما يقال عن هذين العلمين يقال عن علم التاريخ وعلمائه

[1] - سورة الرحمن ، الآيات 1، 2،3،4.

وعلم الطبيعة وعلمائها،لكن من اهتم بها أكثر ودرس اللغة لذاتها وفي منأى عن هذه العلوم الإنسانية هم اللّغويون، وعلى الرّغم من تأثرهم بالسياقات الاجتماعية والتاريخية والنفسية، إلا أنهم ركزوا على تحليل عناصرها وأبنيتها ومستوياتها منطلقين من النسق الداخلي دون السياق الخارجي، وبديهي إذا كانت دراساتهم على هذا الشكل، فإنها بالضرورة تكون قائمة على منهج، يحفظ للدراسة علميتهاوموضوعيتها، وإن لم تكن كذلك فستكون دراساتهم مضطربة لا تؤدي إلى نتائج يقينية، ومن استقرأ جهود علماء العربية قديماً يدرك أن بحوثهم كانت من الجودة بمكان، وما بلغت تلك المرتبة إلا باعتمادها على مناهج، لأنه من المستحيل أن يصل بحث إلى درجة من الامتياز ما لم يؤسس على منهج.

اعتماداً على هذا الطرح، يمكن أن يسائل الباحث نفسه قائلاً: هل كانت الدراسات اللغوية عند العلماء العرب قديما قائمةً على منهج؟ وإذا كانت النتيجة بالإيجاب، فما هي تلك المناهج المعتمدة لديهم؟

وكيف طبقوها حين تعاملوا مع المادة اللغوية؟

وفقاً لهذا التصور، عسى أن تكون هذه الإشكالات سبيلاً إلى بسط الكلام في هذا البحث، ودرباً مؤدياً إلى نتائج موضوعية في نهايته، من خلال المسائل المطروحة في مباحثه.

وبما أن موضوع البحث، يتجه في حديثه مباشرة نحو استخدام المناهج ،ومعرفة مدى فعاليتها في الدّراسات اللّغوية ضمن تراثنا اللّغوي، فإنه من المستلزمات التي جرت بها العادة في البحث العلمي، أن يعرّج الباحث على تعريف المنهج، فما هو المنهج؟

1-تعريف المنهج:

1-1 - لغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور ما يلي: "طريق نهج بيّن واضح ،وهو المنهج... وأنهج الطريق وضح واستبان، وصار نهجاً بيّناً واضحاً، ونهج الطريق سلكه، ... كما أنه يحتوي

معنى تتابع النفس، وهو النهج بالتحريك[1] ومما جاء فيالقرآن الكريم بمعنى الطريق قوله تعالى: {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً}[2]

2-1- اصطلاحا:

يقول عبد الرحمن بدوي: عن المنهج هو "الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بوساطة طائفة من القواعد العامة، تُهَيمن على سير العقل، وتحديد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة".[3]، وإذا كان المنهج مهمته الوصول إلى الحقيقة العلمية باستخدامقواعد معينة، فإن هذه الحقيقة تحتاج إلى برهنة على نجاعتها، لذا فوظيفة المنهج لا تنحصر في الكشف عن الحقيقة فحسب، وإنما تبرهن على صحتها أو فَسَادها.[4]

ووفقاً لهذا التعريف يصبح المنهج عبارة عن قواعد ، هدفُها الوصول إلى الحقيقة العلمية أولاً وإقامة الدليل والبرهان على صحتها أو فسادها ثانياً، فبالنسبة لتلك القواعد فإنها تُمثل الخطة المُحكمة المؤدية إلى الحقيقة،أو هو التصور الذي يهدف إلى إدراك حقيقة ما، وبالنسبة للبراهين فإنها تهدف إلى كشف القوانين أو الحقائق.

فوظيفة المنهج وضع الخُطط، والإسفار عن الحقيقة المجهولة، ومن دونه تبقى المعرفة غير مجدية، والحقيقة بعيدة، وبهذا فأي علم يبقى رهن المنهج، وكلّما كان المنهجُ حاضرا فإنَّ الوصول إلى الحقيقة العلمية ممكن،وكلماكان المنهج غائبا صارت العلم متلاشيا،والبحث ضرباً من التهافت،قال "ديكارت"(تـ1650) (René Descartes): "خير لك أن تترك البحث عن الحقيقة، من أن تبحث عنها بغير طرائق أو منهج".[5]

وبتعدّد وظائف المنهج،تتعدد أنواعه، فإذا كانت الوظيفة الكشف عن الحقيقة، فاتباع منهج الاستدلال والتجريب أولى، وإذا كانت الوظيفة لبسط الحقائق واتباع منهج الاستدلالالأنفع،وهكذا، وإذا كان المنهج هو سبيل الباحث، فإن الزَّلل يكون عنه أبعد، لأنه لا مجال للتخمين في البحث ، ولا مكان للخطأ في الاستنتاج إذا كان المنهج صحيحاً، والعكس يقال عن المنهج الصحيح، فإنه حكم يؤدي إلى صواب في الاستنباط وسلامة في

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، مج3، مادة نهج، دار الفكر، ط3، بيروت، 1994م، ص 130.

[2] - سورة المائدة، الآية 48.

[3] - عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، ط3، الكويت، 1977م، ص 05.

[4] - عفيفي أبو العلا، المنطق التوجيهي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ط11، القاهرة، 1953م، ص 175.

[5] - ديكارت، مقالة الطريق، تر: جميل صليبا، المكتبة الشرقية، ط3، القاهرة، 2016م، ص 17.

النتائج، كما أنه يكون أبعد ما يكون عن الأهواء، وفي منأى عن العواطف، في إصدار الأحكام فلا يبقى له حينئذ إلا استخدام منطق العقل ونور البصيرة، وعندئذ يبصر الحقائق العلمية كما هي في حقيقتها كما كانت ، أو ربّما كما ينبغي أن تكون.

وحتَّى تستوي النتائج على سوقها، ويؤتي التصورالعلميأكله، ويصير منهج الباحث مُرضياً ، لابدّ من شروط تتوفر في كل منهج، بما في ذلك المناهج اللّغوية.

2- أسس المنهج:

لا يكفي أن يكون لنا عقل سليم كي نستخدم المنهج، بل يجب أن نستخدمه استخداماً سليماً كما يقول ديكارت[1]، وإذا استخدم المنهج وفق طريقة سليمة، فإن الباحث يصل إلى النتيجة بأيسر جهد وفي أقل وقت ممكن ، ولكي يرقى إلى هذا المُستوى، يشترط فيه شرطان هما:

2. 1-الموضوعية:

هي نقيض الذاتية، والذاتية تحكيم الباحث لميوله وعواطفه وأفكاره، ومعتقداته، بحيث إذا خالط البحث عنصرا من هذه العناصر، صار بحثه ضرباً من التحيّزات الفردية أو الاجتماعية أو غيرها، وبهذا يكون قد نأى عن الحقيقة العلمية المنشودة ، لذا تبقى الموضوعية هي السبيل الوحيد، لأجل أن يكون البحث محل اتفاق لدى العلماء الذين يعرفونها، بأنها "عبارة عن قيام الباحث في دراسة الظاهرة كما يلاحظها أمامه، أو كما تحدث في الواقع ، مع إدخال أي عنصر ذاتي في وصفها أو تفسيرها، وبمعنى آخر إنه يراد بها معرفة الأشياء، كما هي في الواقع، لا كما نشتهي، أو نتمنى أن تكون"[2]، وعلى هذا ، فإذا أراد الباحث أن يبصر الحقيقة فليجعل الموضوعية مرآته، فتكون محتويات بحثه نابعة من الموضوع نفسه، لها صلة بالظواهر الخاصة بالملاحظة، كما هي في واقع الحال، يرضى بها كل عالم منصف ولو كانت مناقضة لآماله ورجائه، ولا يبلغ تلك المرتبة إلا بالتجرّد والأمانة.

2.2- الشمولية:

يُقصد بها أن تكون القاعدة أو الحكم العلميّ يشمل جميع الجزئيات، وكافة الظواهر المشابهة لها، بحيث لا يمكن أن تنطبق على ظاهرة دون أخرى، فيكون القانون أو الحكم

[1] - يعرب فهمي سعيد، طرق البحث، دار الحرية، ط3، بغداد، 1975، ص 26.

[2] - الطويل توفيق، أسس الفلسفة، مكتبة النهضة المصرية، ط3، القاهرة،1958،ص 142.

العلمي هو عين المعرفة العلمية "والمعرفة العلمية معرفة شاملة، بمعنى أنها تسري على جميع أمثلة الظاهرة التي يبحثها العلم".[1]

من هنا تصبح الحقيقة العلميّة المبنيّة على منهج يقوم على هذين الشرطين، حقيقة جازمة لا تقبل نقاشاً ولا تأويلاً، كما أنها تكون متجانفة لكل أسباب الانطباعية، بل تبسط سُلطانها على العقول المتجردة للعلم والمعرفة.

بعد أن عرفنا المنهج وخصائصه، جدير بنا أن نتساءل عن أهم مناهج البحث اللّغوي الحديث، وعن تموقع الدراسات اللّغوية في تراثنا العربي من هذه المناهج الحديثة.

المنهج التاريخي:

يُعتبر المنهج التاريخي في صدارة المناهج التي ظهرت لخدمة الدراسات اللّغوية، عند الأوروبيين في القرن التاسع عشر، وكان لهذا المنهج فضل في ظهور علم يدعى علم اللّغة التاريخي ، أو كما يسميه آخرون اللّسانيات التاريخية.

ويراد بالمنهج التاريخي ذاك "المنهج الذي يتتبع تطور اللّغة وتغيرها على مرّ الزمان والمكان وفي كل اللّغات".[2]

وصفته أنه يقتفي آثار الظواهر اللّغوية، في عصور أو فترات زمنية أو أماكن مختلفة، ثم يقف على التغيّرات التي أصابتها، ومن ثم يتمّ معرفة نواميس هذا التطور الذي يعتري الظواهر اللّغوية، ويتخذ من المستويات اللغوية ميدانا له، فربّما يدرس المستوى الصّوتي، أو المعجمي، أو الدلالي، أو التركيبي.

ويمكن أن نضرب له مثالاً، وذلك أنه لو عزم باحث ما، أن يتّخذ من العنوان الآتي بحثاً وهو "دلالة الألفاظ في اللغة العربية" لاحتاج إلى أن يأتي على تلك الدلالات عبر عصور العربية كلها، منذ العصر الجاهلي مروراً بعصر الإسلام ثم الأموي ثم العباسي، ثم عصر الضُّعف ثم العصر الحديث إلى يومنا هذا، وبعد ذلك يتتبع ما أصاب اللّغة في جانبها الدلاليالذي ربَّما يتغير ، لتغير سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي أو أي عامل يعتري المجتمعات والأفراد معاً.

وقد يجد الباحثُ اللّغوي من خلال هذا المنهج ألفاظاً أصابها الموات، فلم تعُد مستعملة كتلك التي كان بعضها في العصر الجاهلي، وقد نجد بعضها أصابه التغير في الدلالة. من

---

[1] - يعرب فهمي سعيد، طرق البحث، ص 60.

[2] - محمد علي عبد الكريم الرّديني، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، دط، الجزائر، 2009م، ص 86.

عصر إلى آخر، وقد يجد ألفاظاً استحدثت بسبب صروف الدّهر، وتقلبات الزَّمن، أو لمقتضيات المكان والبيئة، أو العوامل الدينية، كما هو ظاهر في تطور الدلالة عند موازنتها بين ورودها في الشعر العربي والقرآن الكريم.

كما ينطوي تحت المنهج التاريخي "دراسة حياة اللغة في المجتمع وما حققته من انتشار، أو نالها من انحسار أو اندثار، والظروف التي مهَّدت لهذا أو ذاك ، أو ساعدت على ذلك، وما أدى إليه انتشارها من آثار في جوانبها المختلفة، كما يدخُل في إطار هذا العلم دراسة دخول اللغة في صراع مع أخرى، وما أسفر عنه ذلك الصراع من انتصار إحداهما على الأخرى أو تأثر إحداهما على الأخرى".[1]

لأجل هذا كان المنهج التاريخي، يشكل تحوّلا عند الأوروبيين في تصوّرهم اتجاه اللّغة، وذلك إثر اكتشاف اللغة السنسكرينية التي أحدثت انقلاباً في التوجه اللّغوي عندهم" فقد كان العلماء يهتمّون فبل ذلك بدراسة فقه اللغتين اللاتينية واليونانية، ويبحثون في أصول اللّغة عموماً، ويقربون كل لغة بالنسبةإلى اللّغات الأخرى من جهات متعددة، كجمال الأسلوب وضخامة التراث القديم وما إلى ذلك، ومعظم هذه البحوث بحوث فيما وراء الطبيعة، كما أنَّ الأحكام الذاتية لا الموضوعية تلعب دوراً كبيراً فيها".[2]

وقد بقي المنهج التاريخي مهيمناً على الدّراسات اللّغوية لدى علماء اللغة في أوروبا، مدّة زمنية طويلة، وذلك ظناً منهم أنه الوسيلة الفضلى ، للوصول إلى أحكام وقواعد لغوية مبنية على العلمية والموضوعية في دراسة اللّغة، والإتيان على دقائقها وجزئياتها وكلياتها، من خلال مسح تاريخي لكل ظواهرها ومستوياتها المختلفة، ومن أجل هذه العوامل وصل مبلغ الإعجاب من قبل اللّسانيين في أوروبا، بالمنهج التاريخي والاستعانة بالتاريخ في التحليل اللّغوي، إلى القول: "إن الطريقة العلمية الوحيدة لدراسة اللغة هي الطريقة التاريخية".[3]

ولهذه الأهمية التي تحيلها المنهج التاريخي عند علماء اللسان الغربيين يمكن أن نتساءل

---

[1] - محمد عبد الكريم الرّديني، فصول في علم اللغة العام، ص 87.

[2] - رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث اللّغوي، مكتب الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، القاهرة، 1997م، ص 181.

[3] - فهمي حجازي، علم اللّغة العربية، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللّغات السامية، وكالة المطبوعات، د.ط، الكويت، 1973م، ص 175.

عن مكانته لدى علماء اللغة العربية.

المنهج التاريخي لدى علماء اللغة العربية:

لعلَّ الباحث اللّغوي حين يستقري الدراسات اللّغوية العربية خلال العصور التاريخية، بدءاًمن عصر التَّدوين ، يجد أن علماء التراث العربي لم يولوا اهتماماً للجانب التاريخي في دراسة اللّغة، حيث إن دراستهم للغة العربية كانت مهتمة بدراسة اللّغة في زمن محدّد وفي مكان محدّد أيضاً، لذا فإن دراستهم تلك كانت تزامنية، وهذا من خصائص الدراسة الوصفية، كما أنهم حدّدوا فترة الفصاحة، وعدّوا ما خرج عنها شيئاً لا يعبأ به، اعتقاداً منهم بأن عرب تلك الفترة فصحاء، لا تشوب ألسنتهم وفصاحتهم أي شائبة، وما وجد من آثار لهذا المنهج لا يعدو أن يكون محاولة لبيان أثر الإسلام في تغيير العربية".[1] إضافة إلى أن بعض الباحثين لاحظوا أن علماءنا القدامى أهملوا الزمن في دراسة اللغة".[2]

أمام هذا الموقف لعلماء التراث اتجاه المنهج التاريخي، فإن من العلماء من التمس لهم العذر المعزّز بالحجة، حيث إنه أرجع سبب ذلك إلى أنهم تناولوا نصوصاً مختلفة على أساس لغوي وصفي، إذا درسوها بمعيار الفترة الزمنية التي احتوت دراساتهم كلها، "وجعلوها نموذجاً للغة الواحدة، والهدف منه حفظُ اللغة وتقويتها".[3]

ومن هنا ، ينبغي أن نعلم أنه إذا لم تَكُنْ أبحاثُنا اللّغوية القديمة منطوية تحت المنهج التاريخي، فمن الممكن أن تَكُون من جملة المنهج الوصفي.

المنهج الوصفي في دراسة اللُّغة:

هذا المنهجُ أتى كبديل أو ردّ فعل للمنهج التاريخي، حيث أخذ على أصحاب الدراسة التاريخية الاهتمام بتطور الظواهر اللّغوية عبر التاريخ دون الاهتمام بنظامها الداخلي في فترة معينة وفي بيئة ذات حيّز معلوم، لذا يهدف هذا المنهج إلى وصف لغة معينة في زمن ومكان محدَّدين، دون الاهتمام بالمعيارية المعتمدة على الخطأ والصواب، والتاريخية التي تهتم بالمراحل الدياكرونية(Diachronie)، للغة، ومن هنا يمكن تعريف المنهج الوصفي بأنه منهج "يصف الحقائق ويناقشها دون فلسفة أو محاكمة لها ،أو الفهم المنطقي في

[1] - محمد عبد الكريم الرّديني، فصول في علم اللغة العام، ص 88.

[2] - كمال بشر، دراسات في علم اللّغة العام، دار المعارف، ط6، القاهرة، 1980م، ص 57.

[3] - عبده الراجحي، فقه اللّغة في الكتب العربية، دار النهضة، بيروت، دط، 1974م، ص 36.

تفسير وتأويل الظواهر اللّغوية وتأويلها".[1]

والمنهج الوصفي أقربُ إلى الواقع في وصف اللغة وتحليل بنيانها على أساس العلاقات القائمة بين مستوياتها، واستقراء الأصول من الحقائق اللّغوية المستعملة فعلاً، وكما أنتج المنهج التاريخي علماً هو اللسانيات التاريخية، كذلك أفرز المنهج الوصفي اللسانيات الوصفية أو علم اللغة الوصفي، هذا العلم "الذي يعدُّ أحد أبرز فروع علم اللغة، وقد لاقى قبولاً واسعاً واستحساناً كثيراً من لدن الباحثين في هذا العلم، بفضل سلامة نتائج تطبيقه، والإضافات الفكرية التي بلورت جوانب كثيرة من هذا المنهج".[2]

وبهذاالقبولالحسن الذي صدر من قبل العلماء"صار المنهج الوصفي هو المنهج المفضل لدى اللسانيين المعاصرين،ولأهميته يستحسن ذكر أهم أسُسه التي يقوم عليها وهي :

أ- دراسة اللّغة وفق منهج علمي، اللغة هي مادته.

ب- دراسة اللّغة في زمان ومكان محدّدين.

ج- اللّغة المنطوقة هي هدف البحث من منظورهذاالمنهج ، لظهور التّغيرات عليها، وعدم الاهتمام بالمكتوبة لجنوحها نحو السكون والاستقرار.

د- ربط الدرس اللغوي بالاستعمال الواقعي للغة عن طريق الاعتماد على المسموع، للوقوف على العادات النطقية لمتكلمي اللّغة.

هذا الاعتماد على المتكلم الأصلي للغة (الراوي) واتخاذه مساعداً لأنه خير من يمثل اللّغة بصدق.

و- الاعتماد على الاستقراء، ورفض القياس المعتمد على الفلسفة والمنطق، ودراسة اللغة وفق القياس الطبيعي المعبّر عن اللغة.

ز- الحرص على الموضوعية في الأحكام المستقراة من اللغة، والابتعاد عن فرض آراء مسبَّقة لا علاقة لها باللغة.

ح- الفصل بين المظهر الاجتماعي والمظهر الفردي للغة، فالأول يمثل المخزُون اللغوي في عقول أفراد المجتمع اللغوي الواحد (Langage)، والثاني هو الكلام (Parole) الذي يمثل الاستعمال الفردي للمخزون اللغوي.

ومما ينبغي معرفته أن المنهج الوصفي قسمان، قسم وصفي تقريري، يكتفي بالوصف

[1] - محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب، دط، القاهرة، 2001م، ص 95.

[2] - رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص 24.

دون التعليل، وقسم وصفي تفسيري، ويعتني بتفسير الظواهر اللّغوية وتعليلها بعد وصفها.[1]

وبعد هذا البسط المفاهيمي للمنهج الوصفي، ينبغي أن نتساءل عن حظِّ الدرس اللغوي عند العرب من هذا المنهج.

المنهج الوصفي في الدَّرس اللغوي العربي القديم:

إذا كان ""دي سوسير"(ت1913)(F.Desaussure) يُعتبر أول من نبّه اللغويين إلى المنهج الوصفي، حيث قال بضرورة إمكانية دراسة اللّغة دراسة علميّة.[2] تقوم على الوصف والتحليل بعد التسجيل والرّصد والملاحظة، لكن من يتأمّل ما أنجزه علماؤُناَ في بحوثهم قديماً، يتبين له أنهم عرفوا المنهج الوصفي قبل علماء أوروبا، ربّما بما يربو عن عشرة قرون، وذلك حين قاموا في القرن الثاني الهجري، بعملية جمع اللّغة وطوافهم في شبه الجزيرة العربية، ومشافهتهم لأعرابها، مسجّلين كل الظواهر الصوتية والتركيبية، وبعدها شرعوا في وصف تلك الظواهر المتعددة والمختلفة، وقد اعتمدوا في ذلك على الرواية الشفهية، ونقل الظاهرة بواسطة الراوي، معتمدين على السّند المتصل، مفرّقين بين المسائل المشهورة في اللّغة وشواذّها،مستقرئين البنى التركيبية للجملة العربية، وقد أخذوا بعين الاعتبار المستويات اللّغوية التي أجمع عليها اللغويون في العصر الحديث، فنتج عن المستوى الصوتي علم العروض، وعلم مخارج الحروف وصفاتها، كما فعل الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت173 ه) ونتج عن الاهتمام بالتراكيب علم النحو ،ونتج عن دراسة الكلمة فقه اللّغة، وعلم الصرف.

اتبع القدامى منهجية وصفية قوامها الملاحظة ثم التجربة ثم التصنيف ، وصولاً إلى استنتاج القاعدة، يقول "تمام حسان"(ت2011): "إن تاريخ دراسة اللّغة العربية، ليَعْرض علينا في بدايته محاولة جدّية لإنشاء منهج وصفيّ في دراسة اللّغة، يقوم على جمع المادة وروايتها، ثم ملاحظة المادة المجموعة واستقرائها، والخروج بعد ذلك بنتائج لها طبيعة الوصف اللغوي السليم".[3]

وخير من مثل هذا المنهج الخليل بن أحمد الفراهيدي، وتلميذه سيبويه (ت 180 ه)،

---

[1] - ينظر: محمد السيد على بلاسي، المدخل إلى البحث اللّغوي، دار الثقافة للنشر، دط، القاهرة، 1999م، ص 46.

[2] - ماريوباي، أسس علم اللّغة، تر: أحمد مختار عمر، منشورات جامعة طرابلس، كلية التربية، دط، ليبيا، 1973م، ص 29.

[3] - تمام حسان، اللّغة بين المعيارية والوصفية، مطبعة النجاح الجديدة، دط، الدار البيضاء، 1950، ص 22، 23.

ويتجلى المنهج الوصفي في شمولية المستويات اللغوية عنده، فقد جمع سيبويه أكثر من علم من علوم العربية كالنحو والصّرف والأصوات اللّغوية وغيرها".[1]

فلم يكن سيبويه في دراسته للغة حاطب ليل، وإنما كان صاحب منهج، وقد ظهرت عبقريته المنهجية في كتابه ، إذ وضع أول كتاب في اللغة، وهو "الكتاب" على الرغم أن المتخصصين يرون أنه كتاب نحو، لكن الناظر في تبويبهوتقسيمهلعلوم اللّغة يجزم أن "سيبويه" أدرك أن وفرة المادة العلمية والخطة المنهجية سواء ، "فحسبه أن يضع النحو وقضاياه في جانب من كتابه، ويضع الصّرف وقضاياه في جانب آخر، ويضع الصوت وقضاياه في جانب ثالث".[2]وقد يشكل على بعض الباحثين وجود تداخل في مباحث هذه المستويات، والسّبب في ذلك مردّه إلى الاستطراد في الشرح، وافتقار كل مستوى لآخر، لأن "اللّغة عنده دائماً وحدة متماسكة ، يفسّر بعضها بعضاً".[3]

وقد اعتمد في وصفه للغة علىأسس واقعية، كالرواية عن الأفصح، وهو السماع أي الأخذ المباشر للمادّة اللّغوية عن الناطقين بها، ثم طريقة العمليات العقلية التي وصل بها إلى تحقيق الأهداف، "حيث إن ثمة منهجاً منطقياً جرى عليه صاحب الكتاب في تصنيف الأبواب وترتيبها، فبلغ البحث حاجته، وأدرك هدفه".[4]وكان من بين إنجازاته التي توصل إليها بفضل هذا المنهج، هو أنه استنتج أن بناء الجملة العربية يتمثل في أن كل عنصر فيه، يطلب الثاني ويرتبط به ،وهو وما يسمّى بالعامل، لذا بنى كتابه عليه ، حيث بدأ الحديث عن الأفعال، ثم أردفها بكل ما يتعلق به من مس**مّيات تعدّ من متمّمات الجملة**، كالفاعل والمفعول والتمييز والحال والصفة.

وبسبب هذه الجودة التي تميز بها "سيبويه" في إحكام خطة البحث،فإن بعض اللسانيين الغربيين أنصف جهود علماء العربية، ومنهم"تشومسكي" (1928...)(Noam Chomsky)، إذ قال عنها: "بأنها كانت أقرب إلى الإنسان"[5]أي إلى الواقعية ،بعيداً عن متاهات الفلسفة التي تضفي على البحث صفة الخيال، والنتيجة نفسها ،قال بها غيره من علماء

---

[1] - خديجة الحديثي، أبنية الصرف في كتاب سيبويه، منشورات مكتبة النهضة، ط1، بغداد، 1965م، ص 63.

[2] - حسن عون، تطور الدرس النحوي، معهد البحوث والدراسات العربية، دط، مصر، 1970م، ص 34.

[3] - علي العبدي ناصف، سيبويه إمام النحاة، مكتبة نهضة مصر، دط، 1953م، ص 158.

[4] - محمد كاظم البكاء، منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي، دار الشؤون الثقافية العامة، دط، بغداد، 1989، ص 450.

[5] - عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار المعارف الجامعية، دط، الإسكندرية، 1986م، ص 119.

اللسانيات العربية الحديثة، إذ اعتبر الأسس الحقيقية لهذا المنهج عند العرب، "إنما ترجع إلى فكرة العرب، ونظريات المسلمين أو أقل مساهمتهم الكبرى في بناء هذا الصّرح الشامخ في الحضارة اللّغوية الإنسانية".[1]

ومع هذا السّبق المنهجي في علوم اللغة عندالعرب إلا أنهم بعد القرن الثالث للهجري، انحرفوا عنه، فنظروا في الظاهرة اللّغوية نظرة حصر بعد الشمول، وركزوا على وضع قوانين اللّغة اعتماداً على سليقة الأعرابي وحده، مع أنه كما يقول ابن جني: (ت 392هـ) "أن العربي الفصيح ينتقل لسانه ،إذا فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر، من اضطراب الألسنة وخيالها، وإنقاص عادة الفصاحة وانتشارها".([2])

ثم خلف من بعد المائة الثالثة الهجرية، خلف من اللّغويين لاسيما النحاة منهم، فابتعدوا عن الوصف، واقتربوا من التقعيد والتعليل، بل جعلوا المعيار أساساً لدراستهم، فظهرت مصنفات تعتمد القاعدة ،وتنتهج منهج فرضها ، وفق تخريجات هي أقرب إلى السياق الفلسفي المحض، منها إلى النسق والسياق اللّغوي الذي يقتضيه الاستعمال، وبالغ بعضهم حين وضع شروحاإضافة إلى الشروح ، والحواشي إضافة إلى الحواشي، فصار الدرس اللّغوي عبارة عن تقعيدات صعَّبت الدرس اللّغوي، من حيث أرادت تسهيله.

بعد أن تبين أن علماء العربية قديما مارسوا المنهج الوصفي ، قبل علماء اللسانيات الحديثة بقرون ، فهل مارسوا أيضا ماعرف بالمنهج المقارن والمنهج التقابلي ؟

المنهج المقارن والمنهج التقابلي:

المنهج المقارن هو "ما يتخذ من الظواهر اللّغوية في اللغات المنتمية إلى فصيلة لغوية واحدة، أو المنتمية إلى فرع من فروع فصيلة لغوية واحدة ، مادة للدراسة والبحث، أو هو دراسة الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية المتشابهة في اللغات التيتنطوي تحت أسرة لغوية واحدة أو فرع من أفرع الأسرة اللغوية الواحدة.[3] ، وموضوعه دراسة التقابلات بين لغتين أو أكثر داخل العائلة الواحدة، وفائدته تظهر أنه يكمل ما يوجد في المنهج التاريخي والوصفي من نقص، لأنهما لا يصلحان وحدهما

[1] - عبد الله ربيع محمود، من ملامح المنهج العلمي عند علماء العربية، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، العدد 9، 1979، ص 79.

[2] - ابن جني، الخصائص، ج1، دار الكتب، ط1، القاهرة، 1956م، ص 405.

[3] - محمود فهمي حجازي، أسس علم اللغة العربية، دار الثقافة، دط، القاهرة، 1978م، ص 34.

لتفسير عدد كبير من الظواهر في لغة معينة، ومن ثم كان من اللّازم عرضها على الدراسة المقارنة".[1]

ومن حسناته الوصول إلى التشابهات والمفارقات بين اللّغات، فمثلاً ظهور الحركات على أواخر الكلم، ممَّا يبين وظيفة الكلمة في التراكيب، ومن ذلك اشتراك العربية والعبرية والآرامية في هذه الخاصية، لذا حكم علماء اللغة بأن هذه اللّغة من عائلة واحدة، أو أسرة واحدة هي الأسرة السامية.[2]

أمّا المنهج التقابلي، فقد ظهر في ساحة البحث اللّغوي، عقب الحرب العالمية الثانية، وموضوعه المقارنة "بين لغتين فأكثر لإبراز أوجه الشبه والاختلاف بينهما، وذلك لاكتشاف الصعوبات التي قد تصادف متعلم اللغة، ومستعمل هذا المنهج في تعليم اللّغات".[3]

ويشترط أن يكون التقابل بين فصيلتين لغويتين مختلفتين، ولا خير أن يكون ذلك بين لغة ولهجة، وبذا تذلل الصعوبات أمام متعلمي اللّغات، لذا فمعلم اللّغات لابد أن يكون ملمًّا بهذا المنهج حتى يبين الفروق والتشابهات للمتعلم، بين اللغة الأم واللغة الهدف، أي التي يراد تعلّمها، و'إذا كان هذان المنهجان من الأهمية بمكان، فهل عرفتهما الدراسات اللّسانية العربية قديماً؟

المنهج المقارن والمنهج التقابلي في الدراسات اللسانية عند العرب:

يميل بعض الدارسين إلى أن علماء العربية القدامى، لم يعرفوا ولم يطيقوا المنهج المقارن في بحوثهم، والسبب "لأن لغويهم يجهلون غير العربية، أو التي تنتمي معها إلى فصيلة واحدة، وربّما كان بعضهم يعرف العلاقة بين العربية وبعض اللّغات السامية، إذ لم تكن اللغات السامية مجهولة بالنسبة للعرب".[4]

كما أنهم لم يكن لهم استعداد لمقارنة العربية بغيرها من اللغات لاعتقادهم قداستها وشرفها، فهي المثل الذي نزل به القرآن الكريم".[5]

---

[1] - محمود فهمي حجازي، علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، وكالة المطبوعات، ط1، الكويت، 1973، ص 99.

[2] - محمد علي عبد الكريم الدريني، فصول في علم اللغة العام، ص 79.

[3] - محمد خليفة الأسود، التمهيد في علماللغة، منشورات الجامعة المفتوحة، ط1، طرابلس، 1991، ص 36.

[4] - رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص 193

[5] - ينظر: محمود فهمي حجازي، اللغة العربية عبر العصور، دار الثقافة، ط1، القاهرة، 1998، ص 16، 17.

لكن الباحث المتفحّص لأحوال علماء اللّسان العربي قديماً، يجد أن بعضهم كان على دراية باللّغات الأخرى، ومنهم الجاحظ (ت 255 ه)، الذي كان له علم بالفارسية، وذلك حين يقارن بين بلاغتهم وبلاغة العرب يقول: "وفي الفرس خطباء إلا أنّ كل كلام للفرس وكل معنى للعجم، فإنما هو قائم عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي وطول خلوة، وعن مشاورة وعن طول التفكير ودراسة الكتب، وحكاية الثاني عن الأول".[1]

كما أنه ربما كان ذا معرفة بلغة اليونان، لأنه إذا لم يكن كذلك، فكيف ينتقد "أرسطو"(aristote)(322ق.م)، ويذكره تارة باسمه وتارة بلقبه بصاحب المنطق، ويصفه بأنه على الرغم من علمه بضروب الكلام إلا أنه غير فصيح، يقول عنه: "وكان صاحب المنطق نفسه غير موصوف بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام وتفاصيله ومعانيه وخصائصه"[2] إضافة إلى ترجمته بعض العبارات في القصص التي ساقها في كتاب "البخلاء".[3]

لذلك فإن الحكم بأن علماء اللغة قديماً لم ينتهوا إلى المنهج المقارن، يحمل كثيراً من الشطط، والزعم بأنهم في منأى عن اللغات الأخرى ضرب من المغالاة،أو إلقاء الكلام على عواهنه، ولهذا يمكن أن يقال إن الجاحظ وأمثاله طبقوا هذا المنهج، لكن محاولاتهم بقيت انفرادية، وأن منهجهم هذا لم يكن مطرداً ومشهوراً ، ومعتمداً عند بقية علماء اللغة.

وما يقال عن الجاحظ، يقال عن ابن حزم الأندلسي (ت 456 ه)، حيث يجد بين العربية والسريانية قرابة، يقول:"إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا ،أن السريانية والعبرية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير، واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها، فحدث فيها جرس، كالذي يحدث بين الأندلسي إذ رام نغمة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلسي".[4]

ومجمل القول حول هذه المسألة ،أنّ هذه الدراسات المقارنة كانت موجودة لكنها قليلة، وعارضة إلا ما كان من أمر الجاحظ، فإن جهوده على الرّغم من جودتها، إلا أنها لم يلتفت إليها معاصروه، فظلت اختيارات خاصة "بالجاحظ" وبمنهجه، ومنظوره إلى

[1] - الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، ج1،مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، ص 18.
[2] - الجاحظ، البيان والتبيين، ص 18.
[3] - ينظر: الجاحظ، البخلاء، دار بيروت للطباعة والنشر، دط، بيروت، ص 37، 38.
[4] - ابن حزم، الإحكام في فصول الأحكام، ج1، دار الآفاق الجديدة، ط2، بيروت، 1983، ص 31، 32.

اللّغة وأساليبها، لاسيما علم البلاغة العربية.

خاتمة:

صفوة القول، إن الدّرس اللغوي عند علماء التراث اللغوي، لم يكن المنهج فيه غائباً، بل كان حاضراً بقوة لاسيما المنهج الوصفي، كما أن التزامهم قديماً بالمنهج، يدلّ على الإحكام في ضبط الخطة ورسم الأهداف،والسعي نحو علمنة الدرس اللّغوي، وتحرّي الموضوعية فيه بكل ما يقتضيه البحث العلمي، من حيثيات ومعطيات.

ومن خلال ماتقدم ، يمكن أن نخلص إلى النتائج الآتية:

- الدراسات اللغوية العربية القديمة كانت ممنهجة، تتبع خطوات تراعي قانون التدرج من الفرضية إلى النتيجة.
- المنهج الوصفي هو المنهج الغالب في الدرس اللساني العربي القديم، مما يدل على تميّزه، ومضاهاته للدرس اللّساني الأوروبي الحديث.
- أسبقية علماء العربية إلى المنهج الوصفي، الذي لم تعرفه أوروبا إلا في بداية القرن العشرين على يد "دي سوسير" وأمثاله.
- عزوف علماء العربية عن المنهج التاريخي والمنهج المقارن، وتبنيهم المنهج الوصفي، لا يدل على قلّة باعهم في علم اللغات، فالعرب منذ الجاهلية كانت لهم صلات بالأمم المجاورة لهم،ولغتهم تحمل بعض الألفاظ الأجنبية الدخيلة،لذا فإن اعتمادهم على المنهج الوصفي إنما يدلّ على وعيهم بفعاليته في رصد الظواهر اللغوية، ونجاعتهفي الوصول إلى النتائج علمية يقينية.
- الدرس اللغوي العربي كان من حيث المنهج، يشبه الدرس اللساني الحديث، وما أصابه من ركود في العصور المتأخرة، وإنما يرجع إلى التخلي عن المنهج الوصفي، واعتناق المنهج المعياري المبني على المنطق اللغوي العقيم البعيد عن الاستعمال اللّغوي.

قائمة المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع، دار السلام، مصر، ط1.
2- ابن جني، الخصائص، ج1، دار الكتب، ط1، القاهرة، 1956م
3- ابن حزم، الإحكام في فصول الأحكام، ج1، دار الآفاق الجديدة، ط2، بيروت، 1983.
4- ابن منظور، لسان العرب، مج3، دار الفكر، ط3، بيروت، 1994م.
5- تمام حسان، اللّغة بين المعيارية والوصفية، مطبعة النجاح الجديدة، دط، الدار البيضاء، 1950

6- الجاحظ، البخلاء، دار بيروت للطباعة والنشر، دط، بيروت.
7- الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، ج1،مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة.
8- حسن عون، تطور الدرس النحوي، معهد البحوث والدراسات العربية، دط، مصر، 1970م.
9- خديجة الحديثي، أبنية الصرف في كتاب سيبويه، منشورات مكتبة النهضة، ط1، بغداد، 1965م.
10- ديكارت، مقالة الطريق، تر: جميل صليبا، المكتبة الشرقية، ط3، القاهرة، 2016م.
11- رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث اللّغوي، مكتب الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، القاهرة، 1997م
12- الطويل توفيق، أسس الفلسفة، مكتبة النهضة المصرية، ط3، القاهرة،1958
13- عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، ط3، الكويت، 1977م.
14- عبد الله ربيع محمود، من ملامح المنهج العلمي عند علماء العربية، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، العدد 9، 1979.
15- عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار المعارف الجامعية، دط، الإسكندرية، 1986م.
16- عبده الراجحي، فقه اللّغة في الكتب العربية، دار النهضة، بيروت، دط، 1974م.
17- عفيفي أبو العلا، المنطق التوجيهي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ط11، القاهرة، 1953م.
18- علي العبدي ناصف، سيبويه إمام النحاة، مكتبة نهضة مصر، دط، 1953م.
19- فهمي حجازي، علم اللّغة العربية، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللّغات السامية، وكالة المطبوعات، د.ط، الكويت، 1973م.
20- كمال بشر، دراسات في علم اللّغة العام، دار المعارف، ط6، القاهرة، 1980م
21- ماريوباي، أسس علم اللّغة، تر: أحمد مختار عمر، منشورات جامعة طرابلس، كلية التربية، دط، ليبيا، 1973م.
22- محمد السيد على بلاسي، المدخل إلى البحث اللّغوي، دار الثقافة للنشر، دط، القاهرة، 1999م.
23- محمد خليفة الأسود، التمهيد في علماللغة، منشورات الجامعة المفتوحة، ط1، طرابلس، 1991
24- محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب، دط، القاهرة، 2001م.
25- محمد علي عبد الكريم الرّديني، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، دط، الجزائر، 2009م
26- محمد كاظم البكاء، منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي، دار الشؤون الثقافية العامة، دط، بغداد، 1989.
27- محمود فهمي حجازي، اللغة العربية عبر العصور، دار الثقافة، ط1، القاهرة، 1998.
28- محمود فهمي حجازي، علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، وكالة المطبوعات، ط1، الكويت، 1973
29- يعرب فهمي سعيد، طرق البحث، دار الحرية، ط3، بغداد، 1975.